الفصل الرابع

ثلاث مدن

عجبًا ! أؤرخ أنا لأديب وشاعر، أم لرجل مال وأعمال ؟ !

أنا أعلم طبعًا، أنى أكتب عن طلعت حرب، وأعرف أن طلعت حرب، كان هو و(بنك مصر) مترادفين إذ قلت طلعت حرب، فقد قلت بنك مصر، والعكس صحيح، ولكن ما بالى، أكتب الفصل تلو الفصل، عن جوانب فكرية، وروحية لهذا الرجل، أيكون البنك وهو نشاطه الظاهر، ووعاء أعماله الأكبر، وسر شهرته، نتيجة وليس سببا، ووسيلة وليس غاية، ومظهرا وليس مخبرا.

لعلى قلت شيئًا من هذا القبيل فى موضع سابق من الكتاب، ولكنى محتاج لأن أنبه نفسى المرة بعد المرة إلى أننى أبعد عن طلعت حرب المالى، وأقترب من رجل الفكر والقلم والثقافة والروح، حتى لايفقد الكتاب توازنه، فيطغى جانب الروح، على جانب المادة، وإن كان هذا اللون من الطغيان، هو أحب طغيان، عرفه البشر الذين طبعوا على أن يكرهوا الطغيان فى كل صورة ويفروا من اسمه، ويتعوذوا من ذكره.

سافر طلعت حرب ثلاثة أسفار وكانت واحدة من أسفاره إلى المحلة الكبرى والثانية إلى دمشق والثالثة إلى باريس، وفى كل مرة كان يسافر بوصفه مدير بنك مصر، ومؤسسه، ومؤسس شركاته، وفى كل مرة كان يتكلم، فيدور على الاقتصاد والمال، ويسمع المجتمعين، محاضرة بارعة فى شئون المصارف، والإنتاج، مؤيدة بالأرقام معززة بالإحصائيات، ولكن إذا قرأت المحاضرة، رأيت نفسك أمام نموذج عال من نماذج البلاغة، ورأيت الأرقام والأعداد، تذوب وتتلاشى، وتفسح الطريق للمعانى الأدبية، وكأن

المتكلم أديب وشاعر، وكأن الأرقام، الفاظ تتعانق وتتلاقى، لتنظم قصيدة شعرية، تتقطع أنفاس فحول الشعراء، لتلحق بغبار صاحبها.

* * *

بدأ طلعت حرب بوصف المدن الثلاثة، كل على حدة، ثم أخذ يفيض في المعاني القريبة إلى قلبه، والتي تملأ عليه نفسه من روحية أولاً، واقتصادية ثانيًا.

كانت زيارته للمحلة الكبرى في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤، وبمناسبة افتتاح فرع بنك مصر بها، فحيا أهلها بقوله إن مدينتكم أولى المدن المصرية جميعًا بفرع لبنك مصر بها، لماذا؟

ثم أجاب على سؤال نفسه، ليصف لهم مدينتهم، وصفًا لم يفكروا فيه، وإن فكروا عجزوا عن الإتيان ببعضه قال:

«ألأن مدينتكم جمعت بما يحيط بها من خضرة سندسية، وما يتخللها من أبنية فخمة عالية بين جمال الطبيعة الريفية وجمال العمارة في المدن الناشئة.

«أم لأن منطقتكم هذه كما امتزجت بمدينة قدماء المصريين امتزجت أيضا بمدينة العرب التي اتخذها المصريون مدينة لهم، الدلتا، عروس الوجه البحري في الحضارة والعرفان والعمران؟

«أم لأن منطقتكم هذه كما امتزجت بمدينة قدماء المصريين امتزجت أيضا بمدينة العرب التي اتخذها المصريون مدينة لهم، وصقلوها بميزتهم الخاصة بفطرتهم وذكائهم وذوقهم؟» وبعد إذ فرغ من هذه المقدمة، راح يلقي محاضرة عن خصائص مدينة المحلة، ومزاياها، ليقول كل ما يريد أن يقولهن في شئون التحول من الزراعة إلى الصناعة، ومن عيوب مجتمعنا الزراعي الراكد، ومن عيوب صناعتنا البدائية، ومن أن التقدم الصناعي

لا يحتم أن يتوافر فى الدولة المواد الخام ومواد الوقود، فالهمة والتنظيم والإدارة، تعوض الدول عما ينقصها من أسباب التطور والتغيير.

فالمحلة الكبرى – من وجهة النظر هذه – مدينة تستحق الإكبار والإعزاز، لأن فيها لونًا من التوازن الاقتصادى والاجتماعى الذى يرجو أن يسود فى المجتمع المصرى. فهى نموذج المدينة المصرية التى يتناسق فيها الإنتاج الزراعى مع الإنتاج الصناعى. والتى ترينا «كيف تتحرك المدينة من سكونها المحدود وسط الحقول إلى المدينة العامرة بالصنائع، تتحرك الأيدى العاملة فيها كما يتحرك النحل فى خلاياه».

فالمحلة – بريئة إذن – من عيب تشكو منه المدن المصرية الأخرى، وهو غلبة العمال الزراعيين على العمال الصناعيين، بدليل أن العاملين فى الأعمال الزراعية فى مصر كلها آنذاك أربعة ملايين من الأشخاص فى حين أن العاملين فى الصناعة لا يزيدون عن نصف مليون أما المشتغلون بالتجارة فلم يبلغوا سوى ربع المليون وبضعة ألوف وهذا الخلل ليس عيبا فى توزيع الأيدى العاملة على ألوان النشاط الاقتصادى، فقط، بل هو خلل فى البناء الاقتصادى المصرى العام إذ الثابت أن الاستقلال الاقتصادى لا يتوافر ولا يبقى، إلا بقدر التوازن بين هذه المجالات الثلاثة: الزراعة والصناعة والتجارة، وضرب الأمثلة من الدول الأخرى، فذكر بلجيكا وسويسرا والسويد والنرويج وفنلندا، فهذه كلها دول صغيرة، بل أن بعضها كثرت هضابه، وقلت وديانه وانعدم فيها الفحم والحديد والفولاذ، بل انعدم فيها أى معدن آخر من المعادن، ولكنها استعاضت عما ينقصها بإرادتها فى تحويل فقرها إلى ثروة، فى سويسرا، استعانوا بمساقط المياه، وبتحويل الألبان إلى صناعة الجبن والزبد والشكولاته، كما حولت فنلندا والسويد والنرويج، غناها بأخشاب الغابات، إلى صناعة قطع الأخشاب وتصديرها، واستخراج لب الورق منها وإقامة صناعة للورق، ذاع صيتها، وتكاثر عملاؤها.

فليس يضير مصر، أن تعتمد على النيل، فهى كما قال هيردوت هبة النيل، وعلى المصريين بحكم الوراثة، أن يحولوا ارض النيل فى مواعيده من عنبرة سوداء، إلى لؤلؤة بيضاء إلى زمردة خضراء. ولكن لكل زمان أحكامه، فمصر الزراعية فى الماضى، كانت تفيض بغلاتها على جيرانها، ولكنها فى ذلك الحين كانت تبعث من مصنوعاتها أصنافًا وألوانًا بين سفن وملابس من كتان وفؤوس ومواعين وعقاقير، وأعطار وحلى وغير ذلك مما يدل على أن التوازن الإنتاجى لم يكن يجهله قدماء المصريين..

فإذا عدنا إلى المحلة وجدنا التوازن الاقتصادى المرجو، متحقق فيها لأن عدد العاملين فيها نحو ١٠ آلاف، منهما ألفان فقط تقريبا مشتغلون بالزراعة، وثلاثة آلاف بصناعة المنسوجات، وثلاثة آلاف تقريبا بصناعات أخرى، وأقل قليلا من الألفين يشتغلون بالتجارة، أى أن المشتغلين بالزراعة هم ربع سكان المحلة العاملين فيها، وقد كان من آثار هذا التوازن البديع أن وقى الله رأس المال (المحلاوى) من الجمود فبدل أن يدور فى السنة دورة واحدة فى الزراعة، دار فى التجارة والصناعة دورات، أثمرت هذه الدورات:

أولاً: رخاء، واثمر الرخاء شوقًا إلى المعرفة فارتفع عدد الملمين بالقراءة والكتابة فى المحلة إلى ٨٤ فى الألف، فى حين أن عددهم فى مصر كلها ٤١ فى الألف.

ثانيًا: أمنًا واستقرارًا إذ هبطت نسبة الجريمة فى المحلة إلى ١٢ فى الألف من ١٥ فى الألف فى مصر بأسرها.

ثالثًا: نشاطًا فى التقاضى إذ زادت نسبة القضايا المدنية (لا الجنائية) إلى ٥٧ قضية للفرد، فى حين أن نسبتها فى باقى البلاد ١٢ للفرد. والنزاع المدنى هو ابن النشاط الاقتصادى المالى. ولا ضير منه مادام لا يفضى إلى الجريمة.

وقد كانت المحلة دومًا مركـزًا نشـيطًا حيًـا، لذلـك فمـن فضائلـها أنـها حفظت تقاليد الأجداد وسهرت عليها، والدليل على ذلـك مـا قالـه كلـوت بك في كتابه عن مصر من أن المحلة كانت وسـطًا صناعيًـا عظيمًـا، وأنـها كانت واحدة من ١٥ وسطًا للغزل والنسيج تنسج مليوني قطعة قماش.

كما أن الخديو اسماعيل حينمـا سـاهم باسـم مصـر فـي المعـرض العـام بباريس سنة ١٨٦٧ وقع اختياره على منسوجات قطنية مـن إنتـاج المحلـة عرضت حسب كراسة المعرض تحت رقم ٢٧، كما عرضت قطع صوفية من إنتاج المحلة أيضا تحت رقم ٢٨، ثم مجموعة من الفوط الصـوف والحريـر تحت رقم ألف.

ولكن المصلح لا يمكن أن يذهب كلامه كلـه ثنـاء وتشـجيعًا وتدليـلاً، إذ لابد من توجيه ونقـد، ولذلـك فقـد حفـز طلعـت حـرب أهـل المحلـة، إلى الخروج عن نطاق المغازل والمناسج اليدوية إلى الآلات الميكانيكية الحديثة.

ولما انتهى من كلامه، كان قـد قـدم دراسـة كاملـة اقتصاديـة وتاريخيـة واجتماعية لا للمحلة الكبرى وحدها، بل للمجتمع المصرى كلـه، وقـال مـا يجـب أن يقولـه دائمًـا مـن أن مصـر لا يمكـن أن تسير إلا إذا التفتـت إلى ماضيها وعزته، وربطت به حاضرها كما أنها لا يمكن أن تسـير إذا قنعـت بحاضرها، تعرف ماذا يفعلوم وفيم يوفقون، وفيم يخطئون، فتنتقـل عنـهم، في اتئاد ورفق، ولكن بنشاط ومثابرة.

* * *

ثم جاء دور دمشق، التى زارها فى ٧ يولية سنة ١٩٢٥.

وقد مر بنا ما قاله في خطبته فـى دار المجمـع العلمـى العربـى مـن أن لدمشق منزلة خاصة، فهو يشعر حين تطأ قدماه أرضـها، كأنـه يطـأ أرضـا مقدسة، لأن للمدن القديمة التى عاشت الأجيال الطويلة فى ظلمات التاريخ

ثم اندثرت روحا يحس بها من جاس خلال الأطلال وناجى الآثار، فما بالك بمن يجول فى المدن القديمة القائمة؟ أليس فى تغلبها على تصاريف الزمان ومقاومتها حدثان الأيام ما يدعو إلى الإعجاب بها ايما إعجاب بل أليس لها روح قد تختلف عن روح المدن البائدة، ولكنها روح يحس بها الزائر الغريب إذ مر بأرضها؟ كأن أرواح سكانها الأقدمين والأقربين يهمسون فى أذن الإنسان، لا يغرنك فيما تراه من أخيك الإنسان، فكم الت دول فى هذا المكان، وتقلبت عليها حوادث الزمان، فأصبحت فى خبر كان، وبقى هو حيث كان وحيث يكون.. وأن فى هذا العبرة لقوم يعتبرون»..

ولم تقنعه هذه الخاطرة الأدبية الطريفة، والمناسبة تمامًا لقوم اجتمعوا فى مجمع علمى وفى دمشق مدينة البلاغة العربية الحديثة، فأردفها بقوله:

ولمدينة دمشق روح يشعر بها القادم لأول مرة فى حياته، فهى مدينة ربما يكون قد بنى فوق أرضها أول حائط بناه الإنسان، بعد الطوفان، وربما يكون بناها (دماشق) ابن قانى أحد أحفاد سام بن نوح، أو بناها سواه قبل ميلاد إبراهيم الخليل فهى مدينة يناطح تاريخها أقدم المدن فى الشرق، وإذا قلنا الشرق فقد عنينا أقدم قارة مأهولة بالسكان سطع من أرجائها، نور المدنيات القديمة على العالم الحديث. ثم حدث أهل دمشق عن تاريخ دمشق الإسلامية، دمشق عاصمة الأمويين، ودمشق التى بنى لها الوليد بن عبد الملك الجامع الأموى، الذى لا يزال من أعظم الجوامع وأفخمها على الإطلاق، ودمشق الصحابة والعلماء والشعراء.

ولم يكن فى وسع أديب عربى أن يحيى أهل دمشق بأحسن من هذه التحية، لا سيما وقد أضاف إليها هذا المالى المصرى العجيب، إن دمشق

وصفت بالفيحاء، وهى فيحاء حقا، لأن بساتينها تجرى من تحتها الأنهار، وأزهارها تحمل أثير الهواء عبق عطرها، وفاكهتها تسر الناظرين ومبانيها تنم عن ذوق عربى صميم، كل هذه الحقائق الملموسة يقل دونها وصف الفيحاء.

ولكن كل هذا الكلام الحلو المذاق، الذى يسكر بعذوبته أهل الدار، ليس سوى الغلاف الخارجى لكلام أكثر جدا، وهو فى هذه المرة، ليس دراسة اجتماعية أو اقتصادية كدراسة للمحلة الكبرى، بل دراسة ثقافية ولغوية، قدمنا إليك طرفا منها، ولا نود أن نعيد هنا، ما نلقاه عنه من قبل.

لقد تحدث عن تجديد اللغة العربية، وعن دعوى خصومها أنها لا تصلح للعلم الحديث، ولا للنشاط المعاصر، وعن كذب هذه الدعوى، التى أثبتت بطلانها نهضة التشريع والقانون فى مصر، فقد وضعت كتب القانون فى جميع مواده، بالعربية، وترافع المحامون، وكتب الأحكام بها، ولم يجد مشرع ولا قاض ولا محام ولا أستاذ قانون أدنى صعوبة فى أن يعبر عما يشاء باللغة العربية، التى نقلت إليها المصطلحات القانونية واستقرت. ثم جاءت محاولة سوريا بتعليم الطب باللغة العربية، ثم جاء بنك مصر ليثبت عمليًا أن اللغة العربية، يمكن أن تكون لغة بنوك ومحاسبة وأعمال وإدارة ثم انتقل من هذا، وكانت النقلة طبيعية، إلى الحديث عن بنك مصر، فأسمع الحاضرين بيانا عن بدئه المتواضع، وتقدمه المضطرد، ثم تحدث عن حاجة الشرق إلى البنوك.

وختم كلامه بعبارة غاية فى الخطر إذ قال:

« ما هذه الحياة إلا حرب اقتصادية، وخيرات بلادكم كثيرة متنوعة، والله تعالى قد أمركم أن تعدوا لكل حرب عدتها وأن تحاربوا بذات السلاح الذى تحاربون به، ون أقطع أسلحة المزاحمين، النظام وجمع الكلمة، والإقدام وقوة الإرادة، و تجديد آلات الإنتاج وتأسيس المصارف والشركات

المتينة التى تقوم بما لا يستطيع أن يقوم به الفرد، فالبقاء فى هذا العالم للأصلح والأقوى، وما قوتكم إلا بالمال والعلم».

وفى نفس السنة ، سافر طلعت حرب إلى باريس فأقامت له الجمعية المصرية هناك، احتفالاً فى الثالث والعشرين من سبتمبر. وعلى الرغم من أن المحتفلين ليسوا من أهل باريس، ولكنهم من الذين قصدوها طالبين العلم، وأغلب الظن أنهم أحبوها، ولذلك فهم يحبون الذى يحسن الحديث عنها، ومن ثم فلابد أن يكون كلام طلعت حرب عنها الذى يشبه الغزل فى حسناء، قد أسكرهم وهز اعطافهم قال: باريس كانت وستكون دائما أجمل مدينة غربية تجذب إليها السائحين بجمال آثارها وحسن هندامها، وفسيح شوارعها، وعديد مبانيها، وتنسيق غاباتها ونهر سينها ينساب فى وداعة، وهدوء، فيمس ماؤه جدران الكنائس الكتدرائية، والقصور التاريخية، ومعاهد العلوم والفنون، ويمر تحت الجسور، وينتقل من حى رشيق إلى أرشق، حتى ينتهى إلى الضواحى الغناء، وكأنه قد ثمل بمسه جدران الآثار وحيطان الديار، فيتغنى إلى مصبه، يذكر الماضى الجليل، والحاضر الجميل. وإذا كان هذا شعرًا، فاسمع هذا الكلام عن مسارح باريس تعجب أن يصدر عن رجل درس القانون، وانقطع للاقتصاد، وشغلته شواغل المصارف والحسابات، فقد قال: «(المسارح فى باريس) يرجع عهدها إلى ما قبل موليير، وفيها الروايات قد انتحى فيها المؤلفون نواحى مختلفة من الوصف والخيال والحقيقة والواقع، وتصوير الشعور والنفسيات الحائرة، والطبائع البشرية، على أصلها، أو على ما يجب أن تكون، حتى أصبح المسرح الفرنسى الناطق، أغنى المسارح قدرة على تصوير الإنسانية فى أسمى عواطفها الراقية، وفى تحليل عيوبها، على غير إيذاء النفوس»

وإذا كان يروعك أن يكون فى مقدور رجل مال، أن يتحدث عن المسرح الفرنسى: فيوجز فى أربعة أو خمسة سطور، ما يقوله المتخصصون فى

مقالات وبحوث عن مذاهب المسرح من رمزية وطبيعية، وواقعية، وإنسانية، وتحليلية، وتعليمية، فإن لا شك ستكون أكثر إعجابا، وهو يتحدث عن شيء من التفاصيل الحرفية عن المسارح فيقول:

وفي باريس بجوار المسارح الناطقة، ستائر بيضاء صامتة لعرض الصور المتحركة، وباريس مهد هذا الفن نشأت فيها الصور المتحركة فأخذت بمجامع القلوب شارات الممثلين وبراعة المرتبين، ثم يذكر لسامعه أن السينما خطفت عددا من كبار ممثلي المسرح.

ثم يتكلم عن دروب اللهو الأخرى في باريس، فلا يقول هذا الكلام المكرر المعاد الذي لا شك أن الآذان تمجه، والذي لا يقوم معوجًا، ولا يهدي ضالاً، ولا يعدو أن يكون فرصة لإظهار بلاغة المحدثين، وتقواهم وشدة ورعهم، قال طلعت حرب:

لما كنت غير واعظ، ولا أحب أن أكون واعظا، لأني أعلم أن وعظي سيذهب صرخة في واد، فإن كل ما أرجو أن يدخلها بحذر من يدخلها (أي نوادي باريس وكباريهاتها) والغرز (كما ترجم لفظ كباريه).

وفسر نفسه بقوله: نعم أنه يكون من الشاق على الطالب الأجنبي أن يضغط على شبابه ويقاوم في هذا الوسط الجذاب الخلاعة المحيطة به، وإني لا أستطيع أن أقسو على الشباب فأتجاهل طبيعته، وأنكر حقه في اللهو، وانشراح النفس والحبور، ولكن هناك لهو ولهو كما يقول أهل هذه البلاد.

وبعد أن وصل طلعت حرب إلى هذا الموضع، كان من حقه أن يتحدث عن باريس العلم.

فقال إن باريس العلم، هي باريس السوربون، وأن السوربون يطلق على كلية الآداب والعلوم كما يطلق على معهدين ملاصقين لهما روحا وجسدا، هما كوليج دي فرانس، ومدرسة الوثائق القديمة، وهي معاهد تعتبر بمثابة

القلب من جامعة باريس، فمن آدابها وتاريخها وفلسفتها يمتد النور إلى كلية الحقوق، ومن علومها الوضعية الطبيعية والكيميائية، وتاريخها الطبيعي، يمتد ضياء آخر إلى كلية الطب، ومنها جميعا يشرق نور الجامعة الكبرى إلى بقية الجامعات في الأقاليم وينعكس إلى قباب الأكاديميات الشهيرة في سرابها فوق نهر السين.

وهذه السطور القليلة التى كتبها طلعت حرب، ثم ألقاها على أبنائنا فى فرنسا ١٩٢٥، تبدو هينة، لأنها تورد معلومات بسيطة وقليلة عن السوربون وكلياته وعن دوره، ثم دور المعاهد الملحقة، ثم دور الجامعات جميعًا فى فرنسا. ولكنى أرى أن كتابة هذه السطور شاقة، إذ ليس فى الوسع أن تذكر هذه الحقائق القليلة، بهذه البساطة، إلا إذا كنت تعلمها، وتعلم غيرها مما يتصل بها، علمًا واضحًا بينًا، ثم أن نستخلص من هذه المعلومات، مدلولاتها الفكرية والروحية بهذا الإيجاز، وأن تؤديها بهذه الإنانة، فيدل دلالة على ملكة بيانية، أصيلة وفريدة معًا.

بهذه الأحاديث الثلاثة، عن المدن الثلاثة، كشف طلعت حرب، عن مواهبه ككاتب، وعن علمه الغزير الواسع، وعن اطلاعه المتعدد الجوانب، وعن إحساسه بالقيم الثقافية وإيمانه بها، وعن فهمه لما يجب توافره، فى بناء الأمم، وتطويرها، وإخراجها من دور الجمود، إلى دور الحركة، ومن دور الاستجداء والعيش عالة، على الأجداد حينًا، وعلى الأغراب حينًا، إلى الخلق والابتكار والاعتماد على النفس، والميل إلى المجازفة، واستهداف المخاطر. وفى مقدمة هذه العناصر جميعًا: التجدد الروحى، والتزود الثقافى، والحرص على الذاتية والعقلية المستقلة..